

الفصل الخامس (الصدمة)

نعيش في دنيانا ونتخبط فيها ما بين الخير والشر ولكن يرسل الله لكل منّا رسالة خاصة لعله يتذكر، يتعظ ومن الجميل أن تأتينا تلك الرسائل لتكون سبباً في صحتنا ومحاسبة أنفسنا والرجوع إلى الله.

يفتح يوسف عينيه وينظر حوله مندهشاً ويسأل نفسه "ترى أين أنا" يسمع صوت سديم أخته وهي تقول
-يوسف...يوسف...يا لا قوم تأخرت على الكيلة يا بني.

ما زال يوسف في حالة من الصدمة أيعقل أن يكون حُلماً؟...نعم إنه كذلك...يمسح العرق من على جبينه بعد أن تصبب منه وكأنه غارق فيه...ملامح وجهه توهي بالخوف الشديد مما لفت انتباه سديم فقالت

-م لك يا حبيبي شكلك متغير ليه كذا؟

يأخذ يوسف تنهيدة خفيفة ويقول

-شوفت حتة كابوس..بس الحمد لله إنه حلم مش حقيقة.

- طيب يا حبيبي اتفل على شمالك ثلاث مرات و قول أعوذ بالله من شر هذه الرؤيا..ويا لا عشان مستنين سيادتك على الفطار.

يقوم يوسف من سريره الذي أصبح كبحيرة من العرق ليذهب ليأخذ حمام....يقف تحت الماء الساخن شاردأ في ذلك الحلم الذي راوده ترى هل هي رسالة من الله؟ قالها في نفسه.

- صباح الخير يا بابا...صباح الخير يا ماما

- صباح الخير يا بني قالها الأبوان...ثم تابعت الأم قائلة:

- مالك يا بني وشك أصفر ليه كذا؟

- ما فيش يا ماما الحمد لله أنا كويس

ينتهي يوسف من تناول الإفطار ويوجه حديثه إلى أخته

- سديم....رايحة الكلية أوصلك؟

- اه يا يوسف بس عندي محاضرات متأخر روح إنت.

يأخذ مفتاح سيارته ويذهب إلى الجامعة....في الطريق يتصل بصديقه إسلام.

_ألو..إسلام إنت فين؟

-وعليكم السلام يا أستاذ..أنا داخل على الكلية أهو.

-طيب ماتدخلش المحاضرة عشان عاوزك في حاجة مهمة.

يدرس يوسف الهندسة المعمارية...كان هذا حلمه منذ الصغر أن يصبح مهندساً في تخصص والده

يصل يوسف إلى الجامعة وأثناء نزوله من سيارته تقابله هايدي صديقه.

- جوجو وحشتني.

- معلش يا هايدي هجيلك تاني بس عشان إسلام مستنيني.

تلاحظ هايدي الحالة التي تظهر على يوسف ثم تقول:

- إسلام...إسلام...ربنا ياخده و نرتاح منه عامل في فيها شيخ وواعظ ديني.

هكذا حال بعض العصاة لا يحبون أهل الدين والملتزمين بشرع الله.

يصل يوسف إلى إسلام...يشعر كأنه غارق ويوسف هو قطعة القش التي ستنتقذه.

يجلس يوسف مع صديقه ويقص عليه ما رأى في ذلك الحلم

لحظات قليلة وتتعالى ضحكات إسلام قائلاً:

- بقي أنت كنت بتكرهني أوووي كدا ... لأ وكمان كنت بنصحك وأنت بتتريق عليا إنت والشلة

-إسلام مش وقت هزار والله...طمئن قلبي والله أنا خايف

-يا بني أنا ماليش في تفسير...بس يا يوسف أوقات ربنا بيبيعتلنا رسائل كدا تذكرنا بيه وده من حبه لينا والله.

- بس أنا مش وحش أوووي كدا يا إسلام...أنا مش ملتزم زيك و مقصر في الصلاة بس مش شيطان زي اللي كان في الحلم.

- بص يا حبيبي... الصلاة لو ضاعت سهل أووي تضيع حاجات كتير بعدها هتلاقي نفسك بتتخلي عن حاجات أنت كنت بتعملها ... احسبها يا يوسف ممكن تكون رسالة وربنا بيذكرك.

(إسلام..هو صديق يوسف منذ الثانوية تعرفا في إحدى المراكز التعليمية...أحبه يوسف لما وجد فيه من سمو الاخلاق و الالتزام ورقى في التعامل...يحاول إسلام أن يأخذ بيده ونجح في أيام الثانوية ولكن بعد أن التحق بالجامعة ابتعد يوسف عنه ولكن إسلام لم ييأس ولن ييأس، ويحاول معه).

أنهى الصديقان حديثهما ليصعدا إلى المحاضرة...وبعد الانتهاء يذهب يوسف إلى صديقه هايدي بعد أن اتصل بها.

تصل سديم إلى جامعتهما وتتصل بصديقتها مريم لتقابلها...تعرفت عليها مريم في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية فصارتا مقربتين منذ ذلك الحين.

- السلام عليكم ..وحشتيني أوووي يا مريومتي.

- وعليك السلام.....إنت أكثر يا سديم...يابت مش بقدر أبعد عنك يوم واحد..أمال أما تتجوزي هعمل إيه؟

تضحك سديم على كلام مريم فهي تعلم كم هي صديقة في الحديث فالحب في الله أسمى أنواع الحب وقد يكون رزق الله لك صُحبة صالحة تعينك على الوصول إلى الله – تعالى -.

تجلس الفتاتان ويبدأ الحديث بينهما، تذكرتا سوياً تلك الأيام وتحديداً مركز الأوائل التعليمي الذي كان فيه أول لقاء بينهما وكيف لأ رواحهم أن تتلاقى بذلك الشكل الذي يمكن أن نقول عليه "روح واحدة في

جسدين".

فأول ما لفت انتباه سديم في مريم نقابها الذي كان لا يظهر منها أي شيء حتي عينيها مما جعل سديم تعجب بها، كيف لفتاة في ذلك الزمان أن تخفي زينتها ومفاتنها عن أعين الذئاب مما كان سبباً قوياً في معرفتها بها .. أصبحت علاقتهما قوية وأصبحت مريم هي الصديقة القربة لسديم مما جعلها تتشبه بها فارتدت النقاب بعدما أقنعتها أن هذا يشبه زي أمهات المؤمنين .. تلاحظ سديم شرود مريم عنها من طريقة حديثها فتقول...

- مالك يا مريم حاسة فيكي حاجة؟

- ها... أخويا يا سديم تعبنا أووي في البيت مش بيصلي وتعبت معاه معرفش أعمل إيه؟

- معلش ربنا يهديه كل الشباب إلا من رحم ربي كدا...حتي أخويا برود نفس الكلام ربنا يهديهم.

-أميين يااارب.

لحظات قليلة وتشعر سديم بأنها بعالم آخر تحاول أن تقاوم وتفتح عينيها ولكن لا مفر فقدت وعيها بسبب ضعفها الشديد مع حرارة الجو الزائدة....حالة من الرعب تجتاح مريم لا تدري ماذا تفعل؟ أسرع هي وزميلاتها بإسناد سديم إلى العيادة.....مريم تائهة...حائرة لاتعلم كيف تتصرف في ذلك الموقف؟....اقترححت عليها إحداهن أن تتصل بوالدة سديم لتخبرهاأسرعت لتخرج هاتفها فوجدت أنه يصدر رنيناً معلناً اتصالاً..." أخي يوسف " لم تشعر مريم بشيء عندما رأت اسم المتصل فسارعت بالرد قائلة..

- سديم أغمى عليها في الجامعة تعال بسرعة قالتها وهي تبكي...شعر يوسف بقبضة في قلبه...فهني أخته...لم يشعر بنفسه إلا أنه استقل سيارته وذهب إلى كليتها..التحقا الاثنان بالجامعة نفسها إلا أن الكليتين مختلفتان.

يدخل يوسف مسرعاً...لم يشعر بالمسافة التي قطعها و لم يشعر بصديقه هايدي عندما تركها بمفردها فور سماع ذلك الخبر....يصل يوسف إلى العيادة ليجد سديم قد استعادت وعيها، يسرع إليها ليكون صدره مأوى لها....ضمها إليه وقبل رأسها وقال:

- سديم مالك يا حبيبتيطميني عنك.

- أنا بخير يا يوسف الحمد لله زي القردة أهو البركة في ربنا ثم مريم، ربنا يبارك فيها.

ينظر يوسف خلفه فلم يجد سوى مريم....قال في نفسه " طيب إنت مديانا وشك ولا ضهرك بالسواد ده كله".

لم يحب النقاب قط حتى أنه عارض أخته عندما ارتدته، كان يستهزأ بها دوما ويقول " بقيتي عاملة زي البتجانة السودا...بقيتي شبه الصندوق الأسود " ولكن بعد ترحيب والده وموافقة والدته تقبل الأمر، كانت مريم منحنية الرأس تنظر إلى الأرض من شدة الخجل، لا تهمس بحرف واحد؛ فهذا الموقف يربكها حقاً.

اتجه يوسف وهمّ بفعل شيء لم تكن تتوقعه أخته.....

الفصل السادس

(القب يدق)

قد لا نعتاد على تصرفات البعض تجاهنا قد نجدها تصرفات غريبة ولكنها في الحقيقة حكمة لن يفهمها إلا القليل... ليس كل ما نحبه نحصل عليه، وليس كل ما نشتهي نأخذه.. فالنفس لا تشبع ولا تمل...

يقتررب يوسف ويمد يده ليصافح مريم ليشكرها على ما فعلته تجاه أخته، ولكنه وجد ما لم يكن في حساباته.

-أسفة مش بسلم على رجالة.

وقعت كلمات مريم كصاعقة رعدية ضربت برجاً ما مخلفة دماراً شاملاً...فهي أول فتاة تفعل معه هكذا؛ فكثير من الفتيات أحلامهنَّ بأن يصحبهنَّ يوسف داخل سيارته.

وقف مكانه لا يدري ما يفعل وسط الطالبات ودكتورة العيادة لم يستطيع أن يتمالك نفسه ليقول لها:

- هو ليه التكبر اللي إنتى فيه ده يا أنسة؟

لم تتحرك مريم من مكانها فهي ثابتة كالوتد...اصطحب يوسف أخته إلى المنزل بعدما طمأن والدته. وفي طريقهم إلى المنزل... لم يتحدث يوسف بكلمة واحدة، تلاحظ سديم شرود يوسف غير الطبيعي...يفكر فيما حدث مع مريم، ويحدث نفسه قائلاً "لِم هي تختلف عنهم؟ لماذا؟..ولكنها متكبرة للغاية " يقطع شروده صوت سديم و هي تصرخ و تقول:

- حاسب يا يوسف...حاسب.

كاد أن يصبح حلمه حقيقة ..ولكن قدر الله.

- هي صحبتك ديه مين و بتتكبر علي إيه؟

تتفاجأ سديم من سؤال يوسف على مريملماذا هو مهتم بها إلى هذا الحد؟؛ فهي تلاحظ شروده منذ ذلك الموقف...لتصدمه بردها القاطع:

- ريح نفسك ديه مش زي أي واحدة عرفتها، فما تسألش عنها أحسن يا يوسف.

لم يجد كلمات تخرج من بين طيات قلبه المنكسر من رد أخته القاطعوصلا إلى المنزل، واطمأنت الأم وهدأ قلبها.

صعد يوسف إلى غرفته؛ ليلقي بجسده على سريره، وينظر إلى سقف غرفته ويشرد فيما حدث مرة أخرى، ويتعجب أن هناك فتاة تفعل ما فعلته مريم .

لم يكن يعلم أن هناك فتيات يحافظن على أنفسهن؛ فكل ما يعلمه عن الفتيات أنهن أمثال هايدي. تنهيده تخرج من بين أضلاعة مخلفة دقة في قلبه لم يشعر بها من قبل و يقول:

- يارب مراتي تبقي زيها.
يغلبه النعاس فيخد في نوم عميق....لم يستيقظ إلا علي رنين الهاتف.. ينظر إلى اسم المتصل؛ ليظفر
ظفرة ضيق؛ فكانت هايدي المتصل.

- إيه يا هايدي؟
- إيه يا هايدي....ده اللي قدرت عليه ..سبتني لوحدي ولا فهمتني في إيه ولا حاجة، ولا هان عليك
تتصل.

- معلى أختي تعبت ومكنتش فايق.
-لا، ألف سلامة ...طيب هي كويسة دلوقتي؟.

- أه، الحمد لله.
- وانت عامل إيه يا حبيبي؟
- كويس...بقولك هقفل ماما بتنادي عليا، وهبقي أكلمك...سلام.
- سلام.

أنهى مكالمته؛ ليجد نفسه بعدها يفكر لأول مرة في علاقته بهايدي ويفكر في مريم، ولكنه يحاول أن
يخرج تلك الفكرة من عقله؛ فهي لا ترضى بأمثاله.

وفي الصباح يتجه يوسف نحو كليته ولا يكف عن التفكير في أمر مريم...هكذا طباع بعض الرجال لا
يقبل أن ترفضه أنثى...لا يرضى أن تتركه وترحل.
تقابلة هايدي على بوابة الكلية ولكنها لم يرها ...بعد أن نزل من سيارته أخذت هايدي تصرخ في وجهه
نتيجة إهماله لها، لم تعد على تلك المعاملة، كان يصب عليها من الدلال صبا حتى أصبحت متيمة
به...ولكنها تفاجأت برده أنه يريد أن يقطع علاقته بها؛ لأنه لم يحبها، ولا يستطيع أن يكمل معها.
وقعت كلماته عليها كالسهم الذي أطلق من كبد قوسه أصاب قلباً فاخرقه..يتركها يوسف وحيدة ويمضي
قُدماً...نظرات زملائها لها كأنهم يأكلون من جسدها...تقف صامته للحظات ثم تقسم لنفسها بالانتقام منه
مهما كلفها الأمر، ستذيقه من الكأس نفسها الذي سقاها منه.

يعلو رنين هاتف إسلام:

- السلام عليكم يوسف حبيبي عامل إيه؟
- وعليك السلام بخير...إسلام، نا قطع علاقتي بهايدي.

وعلى جانب آخر تحديداً في كلية آداب تجلس مريم بجانب صديقاتها لتتفاجأ بسديم رغم تعبها إلا أنها لم
تستطع أن تبعد عن صديقتها.

تجلس الفتاتان لتتحدثا سوياً ثم اقترحت مريم أن يذهبا لمقابلة صديقتها من الناحية الأخرى من الجامعة
وافقت سديم على الفور؛ لأنها تحب مجالسة الصالحات...

علي الفور اتصلت مريم بصديقتها لتخبرها عن المكان المحدد....تدخل مريم وسديم الكلية.
- مش عاوزة أقولك حفصة اللي هتشوفها هتحبها إزاي....لاحظت مريم عدم رد سديم لتلنفت خلفها

تجدها واقفة تنتظر إلى شخص ما.

تتظر سديم من بعيد علي ذلك المنظر الذي أشعل شرارة الغضب بداخلها كأنه بركان، وحانت لحظة خروج جِمْمه الملتهبة. "معقولة يوسف ومع واحدة والضحك ده كله" قالتها سديم بصوت ملحوظ مما جعل مريم تلتفت تلقائياً تجاهه.

تقطع سديم ضحكاتها ليتفاجأ يوسف بأخته وهي تقف بجانبه وتتنظر إليه بغضب جامح.

قام يوسف من مكانه مسرعاً نحو سديم ليأخذها من يدها ويقول:

-إيه اللي جابك هنا و بتعملي إيه؟

- أنا اللي مفروض أسألك السؤال ده..إنت مش المفروض في كليتك..جاي هنا ليه؟

يتلثم يوسف في الرد ليجد مهرباً وحيداً:

-أنا...أنا جاي لصحابي هنا.

-آه ماهو واضح.

- ردي عليا إنتى جايه ليه هنا؟

تخبره سديم بما اتفقت عليه هي و مريم ليتفاجأ بسماع اسمها ويلتفت حوله ليجدها تنتظر إليهم ولكنها أدارت وجهها فور أن نظر إليها...هنا سقط قلب يوسف من نظرات مريم إليه التي أحس أنها نظرات شفقة علي حاله وحال أمثاله من الشباب .

تعود سديم إلى مريم بعد أن تكلمت مع أخيها بشدة.

- يالا بينا يا مريم.

- حاضر.

تتفاجأ سديم من نبرة صوت مريم كأنها تبكي أو تختنق؛ لتسرع لتقول لها:

- مريم، مال صوتك إنتى بتعيطي؟

-أعيط إيه يابنتي؟ الجو كتم ونفسي تقل شوية بس .. يالا بينا؟

أنهت الصديقتان الجلسة الطيبة مع **الصحة الطيبة** و تذهب كل منهما إلى منزلها.

تدخل مريم على غير عاداتها إلى منزلها...تلقي السلام على والدتها وتدخل إلى غرفتها، وتغلق الباب خلفها و ترمي بجسدها المنهك على سريرها، تحتضن وسادتها وتطلق العنان لدموعها التي تسقط رغماً عنها...دموع لا تعرف سببها.

تسمع صوت بداخلها يقول:"لماذا تبكيين كل هذا البكاء؟ فهذا الأمر لا يعنيني؛ فليفعل مايشاء..ولكن لِمَ قلبي تحرك هكذا رغم أنني لم أفكر به أبداً" ظلت شاردة كثيراً وتدور بخاطرها تساؤلات كثيرة حتى غاصت في نوم عميق.